نطاق الجدران الأربع

عن كتاب انطلاق الروح

للبابا شنوده الثالث

أود أن أخبرك الآن أن الروحيات فى الصحراء و الجبل لها طابعها الذى يختلف عن طابع الروحيات فى المدينة , فمن أهم القيود التى تتعب العابد فى المدن : نطاق الجدران الأربع .

و لقد جربت هذا بنفسى , كنت منذ سنوات فى معسكر فى ألماظه و هى بقعة صحراوية تقع على بعد أميال من ضاحية مصر الجديدة . و كنت متعودا أنا و أحد اخوتى من مدارس الأحد أن نصعد على أعلى رابية فى تلك الصحراء لنقضى وقتا فى الصلاة و التأمل . و كانت مصر الجديدة , تلك الضاحية الفخمة فى مبانيها و شوارعها و تنظيمها و سكانها أيضا , تظهر لنا على بعد كشئ ضئيل تافه على مرمى النظر فى خط الأفق . و لم يكن يبدو منها غير بعض اضواء بسيطة : لعاملين بسيطين هما عامل البعد و عامل الارتفاع . و كنا نشعر أن روح كل منا انطلقت من احترام الطول و العرض و الارتفاع , و الفخامة و الضخامة . و التنميق و التزويق , و تساوى أمامها القصر العالى و البيت الصغير , اذ لا يبدو شئ من كليهما . بل كنا نشعر بسعادة و لذة روحية و نحن جالسان على الرمل فوق تلك الرابية المرتفعة , سعادة لم نجدها فى المدن فى يوم من الأيام .

و فى عطلة من المعسكر رجعنا الى القاهرة و أقول لك الحق يا أخى الحبيب اننى انزعجت من هذه العاصمة الصاخبة . و كنت أسير فى الشوارع و فى رأسى و أذنى بركان ثائر من ضجيج الناس و صوت السيارات و الترام و وسائل المواصلات المتعددة . و عرفت وسط هذا الصخب أننى لست بقادر أن أفكر تفكيرا منتظما مرتبا متلاحقا , كما كنت أفعل فوق الرابية المرتفعة .

و عندما أغلقت على باب مخدعى و وقفت للصلاة , لم أستطع أن أصلى , كانت الجدران الآربع التى للغرفة بمثابة حاجز منيع يفصلنى عن التمتع بالله . و أقول لك فى صراحة اننى خرجت من غرفتى دون أن أصلى و سرت بعيدا بعيدا أبحث عن فضاء هادئ مرتفع لا أرى فيه أمامى الأبنية و المنشآت , و تصغر فيه نواحى العمران و المدنية , و بعد حوالى الساعة من السير وجدت مكانا فيه شئ ضئيل مما أطلب , و هكذا رجعت الى منزلى ضيق النفس مشتاقا الى رابيتى المرتفعة مرة أخرى ...

و انقضت أشهر المعسكر و رجعنا الى العاصمة , و وجدت نفسى مضطرا الى تعود الصلاة بين الجدران الأربع . و لكن ذكريات تلك الرابية المرتفعة ما زالت خالدة أمام عينى حتى اليوم , و لكى أحصل على جانب من التعويض كنت - بعد أن انتهى من درسى فى مدارس الأحد , أصعد و اخوتى الشبان الى سطح الكنيسة المرتفعة لنلقى نظرة على القاهرة , فنراها أيضا فى ظلمة المساء شئيا ضئيلا لا تبدو منه غير أشباح أبنية تلمع فيها تلك النقط البيضاء المضيئة .

ان روحك يا أخى الحبيب تود أن تنطلق هى أيضا كالطير من غصن الى غصن , تود أن تصير كالملائكة الذين يسبحون فى السماء بغير روابط أو قيود . و ان لم تستطع هذا باستمرار , فلا أقل من تهيئة فرص لها فى بعض المناسبات ...

ان هذا يجعلنى أتخيل التأمل اغزر و أوفر بالنسبة الى البحار و الفلاح و ساكن الجبل و ساكن الصحراء . و يخيل الى أننا سنصير كذلك عندما نتخلص من نطاق الجسد و نصعد الى فوق , حيث الله و الملائكة و القديسون .

و قد تناولت هذا الموضوع مع أبى الراهب , فحدثنى عن اختبار روحى آخر , حكى لى كيف انفرد فى قلايته ثمانية و عشرين يوما فى مستهل حياته الرهبانية . قابعا بين الجدران الأربع , لا يرى انسانا و لا يتصل بانسان , مجاهدا فى صراع عنيف بينه و بين الله و نفسه , و كيف كانت تلك الحقبة من الزمن فترة " غربلة " قاسية لنفسه , استطاعت فيها الروح أن تنطلق شيئا فشيئا من قيودها الكثيرة الى الله , و تغتصب منه الوعود اغتصابا ...

و بعد ذلك خرج الراهب من قلايته و قد تساوت أمامه الجدران و اللاجدران ...

و هنا أقدم لك فى هذا الموضوع مرحلة من مراحل الروحانية أسمى و أعمق . كانت المرحلة الأولى هى التبرم بالجدران الأربع , أما هذه فهى مرحلة عدم الاحساس بالجدران الأربع , حيث تجلس فى غرفتك . و تستغرق فى صلاتك أو تأملاتك أو قراءاتك , حتى لا تعود تشعر بكل ما حولك , و انما تعيش فى عالم آخر يسمو على الحس , لا تعرف فيه هل أنت فى غرفتك أم فى فضاء الدير , هل قلايتك لها جدران أم ليس لها , بل أقول انك فى تلك الحالة لا تستطيع أن تميز هل انتقلت اليك السماء و أنت على الأرض , أم انتقلت و أنت على الأرض الى السماء ؟ بل دعنى أهمس فى أذنك يا أخى الحبيب أن هناك أشخاصا لم يستطيعوا أن يدركوا - فى حالات كهذه - هل هم فى الجسد أم خارج الجسد كما حدث للقديس بولس الرسول , و كما روى عن القديس يوحنا الأسيوطى و الشيخ الروحانى أيضا .

يتدرج بى هذا الموضوع , موضوع انطلاق الروح من المكان , الى تأمل آخر متعلق به و هو " الرؤى " .

سمعنا فى هذا الأمر من قبل عن اختبارات القديسين يوحنا الحبيب و القديس بولس الرسول , و يعوزنا الوقت ان استرجعنااختبارات الأنبا أنطونيوس و الأنبا شنوده و غيرهما من القديسين الذين انطلقوا من أماكنهم و عاشوا بالروح فى أجواء و بيئات أخرى , رأوا فيها أشياء عجيبة لا ينطق بها .

انما أذكر هنا قصة رواها لى أحد أخوتنا الأحباء عن كاهن ممتلئ بالروح كان واقفا يصلى فى المذبح فلما وصل فى صلاته الى عبارة " و رفع نظره الى فوق ... " رفع نظره هو أيضا , و سادت الكنيسة فترة من الصمت العميق , و مرت دقيقة و دقيقتان و دقائق كثيرة و الكاهن القديس ناظر فى صمت الى فوق فى دهشة و ذهول , و طال الوقت جدا و الشعب يتأمل كاهنه المبارك فى صمت , و بعد فترة أخفض الكاهن بصره , و أكمل صلاته فى عمق و حرارة دون أن يحس فترة الصمت التى مرت به . و لما أخبره أحد خواصه ـ بعد القداس ـ بما حدث و طلب منه ايضاح الأمر , اضطرب و لم يجب , و لما كثر عليه الالحاح قال انه نظر الى فوق فاذا بالكنيسة و كأنها بلا قبة و لا سقف , و اذا به يتأمل سلما طويلا يصل المذبح بالسماء . فتأمله لحيظات كأنها جزء من الدقيقة ثم أكمل صلاته ...

يتحدثون بعد ذلك عن الرهبنة كطريق الى الخدمة , و ما أرى الرهبنة الا طريقا الى السماء تساعد فيه الخلوة و التأملات و الجهاد المستمر على دوام انطلاق الروح حتى تتحد بالله .